

أَب يَرْتِي ابْنَهُ

د. عدنان علي رضا النحوي

رَحَلْتَ ! وَبِي لَهْفُهُ مِنْ حَيْنِ
وَعَبْتَ ! وَذَكَرَكَ عَطَرُ الدِّيارِ
وَفَوْحُ الشَّبَابِ عَلَى جِدِّهِ
وَحَيْثُ نَزَلْتَ غَنِيَّ الْعَطَاءِ
وَشَوْقٌ إِلَى بِرِّكَ الطَّيِّبِ
وَعِطَرُ الْمَرَّاعِ وَالسَّبَبِ (١)
وَفَوْحُ الطَّفُولَةِ فِي الْمَلْعَبِ
تَقِيَّ الْمَسَالِكِ وَالْمَذْهَبِ

رَحَلْتَ ! وَمَا زِلْتُ أَهْفُو إِلَيْكَ
وَعَبْتَ ! وَمَا زِلْتُ أَرْزُو إِلَيْكَ
رَكَضَتْ وَأُسْرَعَتْ ! جُزْتَ الْمَدَى
كَأَنَّكَ تَعْدُو إِلَى جَنَّةِ
كَأَنَّكَ فِي حَوْمَةٍ مِنْ سَبَاقِ
حَيْنِ الضُّلُوعِ وَشَوْقِ الْأَبِ
وَقَلْبِي وَطَرْفِي يُلَحَّانِ بِي
فِيَا لَوِثَابِ الْفَتَى الْأَنْجَبِ
يُبَلِّغُهُنَّ اللَّهُ مِنْ يَجْتَبِي
فَجَلَّيْتَ فِي السَّبْقِ وَالْمَطْلَبِ

رَحَلْتَ، بُنَيَّ، عَلَى حُرْقَةٍ
عَلَى مُقْلَةٍ قَرَحَتْهَا الدُّمُوعُ
وَحَوْلِي أُمُّكَ تَبْعُ الْحَنَانِ
تَعُضُّ عَلَى شَفَتَيْهَا أَسَى
فَدَفَقُ الدُّمُوعِ عَزَاءَ الْفُؤَادِ
تَهِيجُ بِإِخْوَتِكَ الذِّكْرِيَّاتِ
وَدَمْعاً يَفِيضُ عَلَى الْوَجْتَيْنِ
فَيَخْفُونَ مِنْ لَوْعَةٍ فِي الْحَشَا
وَصَحْبُكَ كَأَنَّكَ مِنْ مُهْجَةٍ
فَمَاجُوا ! فَمِنْ مَوَكِبِ مُقْبِلِ
وَجَمْرٍ هُنَا فِي الْحَشَا مُذْهِبِ
تَفَجَّرَ مِنْ قَلْبِي الْمُلْهَبِ
تَصُبُّ الدُّمُوعُ وَلَمْ تَصْخَبِ
لِتَكْظِمَ مِنْ حُزْنِهَا الْمُنْصِبِ
أَلَا أَطْلِقِي الدَّمَاعِ أَوْ سَرَّبِي (٢)
حَيْنًا إِلَى الرَّحِمِ الْأَقْرَبِ
فَيَحْسُوه الْعِزُّ مِنْ صُلْبِ (٣)
يُؤَاسُونَ مِنْ أَمِّهِمُ وَالْأَبِ
نُزَعَتْ وَمِنْ أَكْبَدِ نَحْبِ
كَرِيمٍ يُؤَاسِي إِلَى مَوَكِبِ

(٢) سَرَّبَ : أَطْلَقَ دَفْعَةً بَعْدَ دَفْعَةٍ .

(١) السَّبَبُ : الْفَلَاةُ ، الْأَرْضُ الْبَعِيدَةُ .

(٣) صُلْبٌ : الشَّدِيدُ ، الْقَوِيُّ .

حَنِينُ الْأُمُومَةِ ! شَوْقُ الْأُبُورِ
 يَمْسُوجُ عَلَى فِطْرَةٍ أودَعَتْ
 فَيَمْتَدُّ مِنْ عَالَمِ ضَيِّقِ
 فَمَنْ يَسْعُ الْحُزْنَ ! هَذَا مَدَاهُ
 فَمَا يَسْعُ الْحُزْنَ إِلَّا يَقِينُ
 رَحَلَتْ ! بُنَيَّ إِيَّادُ ! وَغَبَتْ
 إِذَا مَا ذَكَرْتُكَ هَاجَتْ دُمُوعِي
 تَنَازَعْنِي النَّفْسُ دَمْعُ يَفِيزُ
 أَعُودُ إِلَى ذِكْرِ رَبِّي فَأَخْشَعُ
 رَحَلَتْ ! بُنَيَّ إِيَّادُ ! وَغَبَتْ
 فَأَنَّى التَّفْتُ أَرَى طَيْفَكَ الْخُلُورِ
 وَطَلَعَهُ وَجْهَكَ إِشْرَاقَهُ
 وَيَسْمَعُهُ وَجْهَكَ نُورُ يَفِيزُ
 وَلَهْفُهُ صَوْتُكَ ! كَمْ قَدْ حَنَوْتُ
 فَيَجْلُو حَدِيثُكَ صَفْوَ النَّبَاهَةِ
 تَضُمُّ جَنَاحَيْكَ حَوْلِي بِرِّ
 إِيَّادُ ! وَكُنْتَ تُجِيبُ النَّدَاءَ
 فَمَا بَالُكَ الْيَوْمَ لَا تَسْتَجِيبُ
 وَكُنْتَ تُجِيبُ نَدَاءَ الصَّلَاةِ
 صَدَقْتُ ! أَجَبْتَ نَدَاءَ أَجَلٍ
 إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ! عُقْبَى التَّقِيِّ
 إِلَى اللَّهِ ! إِنَّا لَهُ رَاجِعُونَ
 إِذَا حُمِّ فِينَا قَضَاءُ الْإِلَهِ
 فَسُبْحَانَ مَنْ قَهَرَ الْخَلْقَ فِي
 إِيَّادُ ! حَنَانِيكَ ! كَيْفَ السُّلُورُ
 ع ! فَيُضُّ مِنَ الْحَزَنِ الْأَضْعَبِ
 وَنَبْعُ مِنَ الْبِشْرِ لَمْ يَنْضَبِ
 إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالْغَيْبِ
 مَدَى عَالَمٍ وَاسِعٍ أَرْحَبِ
 وَصِدْقُ مَعَ اللَّهِ لَمْ يُكْذَبِ
 عَلَى لَوْعَةٍ وَأَسَى مُضْحَبِ
 فَأَسْكُبُ مِنْ وَابِلٍ صَيِّبِ
 عَلَيْكَ وَصَبُّرُ جَمِيلِ أَبِي
 لِلذِّكْرِ وَالْأَمَلِ الْأَرْحَبِ
 وَبِي مِنْ جَوَى هَائِجِ مُنْصَبِ
 حَوْلِي يُخَاطِبُنِي يَا أَبِي
 وَإِقْبَالُ طَيْفِكَ لَمْ يَغْرُبِ
 عَلَيَّ يَشْقُ دُجَى الْغَيْهَبِ
 عَلَى قَلْبِي الْخَافِقِ الْمُتَعَبِ (١)
 بِالْأَدَبِ الْمُرْهَفِ الْأَعْدَبِ
 نَدِيَّ الشَّمَائِلِ وَالْمَوْهَبِ
 وَتُسْرِعُ رُكُضًا إِلَى مَطْلَبِي
 وَعَهْدِي بِبِرِّكَ لَمْ يَكْذَبِ
 فَهَذَا النَّدَاءُ ! فَقُمْ وَارْغَبِ (٢)
 وَقُمْتُ إِلَى مَنْزِلٍ أَطِيبِ
 إِذَا جَدَّ فِي السَّعْيِ وَالْمَذْهَبِ
 فَمَا مِنْ مُجِيرٍ وَلَا مُعْقِبِ
 فَمَا مِنْ سَبِيلٍ إِلَى مَهْرَبِ
 قَضَاءٍ وَسُبْحَانَ مَنْ يَجْتَبِي
 وَطَيْفَكَ حَوْلِي لَمْ يُحْجَبِ

(١) إشارة إلى العمليتين الجراحتين اللتين أُجريتَا لي في القلب .

(٢) إشارة إلى أن حادث الوفاة كان قبيل أذان العصر، وقد تحركت السيارة بنا إلى المستشفى المركزي مع انطلاق أذان العصر من يوم الأربعاء ٢٨ / ٥ / ١٤١٢ هـ ٤ / ١٢ / ١٩٩١ م .

فَهَذَا كِتَابُكَ ! يَا وَيْحَ نَفْسِي
وَهَذَا قَمِيصُكَ خُلُو الشَّذَى
وَهَذَا السَّرِيرُ ! كَأَنِّي أَرَاكَ
أَعُوذُ وَبِي خُرْقَةً مِنْ حَيْنٍ

كَأَنَّكَ مَازَلْتَ فِي الْمَكْتَبِ
وَهَذَا الـرِّدَاءُ عَلَى الْمَشْجَبِ
فَأَقْبِلْ وَالشُّوقُ قَدْ هَاجَ بِي
إِلَيْكَ ، إِلَى وَجْهِكَ الطَّيِّبِ

وَمَكْتَبَةٌ نَسَقَتْهَا يَدَاكَ
أَطُوفُ بِهَا وَرُؤَى الذِّكْرِيَّاتِ
يُذَكِّرُنِي كُلُّ رُكْنٍ بِهَا

عَلَى فِطْنَةِ الْمَاهِرِ الْمُعْجَبِ
تَطُوفُ كَأَنَّكَ لَمْ تَذْهَبِ
حَنَانٌ فَتَى طَيِّبٍ أَحَدَبِ

وَأَقْرَأُ شِعْرِي وَنَثْرِي فَتُصْغِي
وَيَا لَبَّيْكَ الْفُؤَادِ الذِّكْرِي
فَأُصْغِي إِلَى نَفَحَاتِ غَوَالِي

إِلَيَّ ! فَيَا لِلْفَتَى الْأَنْجَبِ
وَيَا لِحَصَافَةِ مُسْتَوَعِبِ
كَوَائِبَ مِنْ حُسْنِهَا ثَقْبِ

بُنَيَّ غَدَوْتُكَ صَفْوَ اللَّبَّانِ
كَتَابٌ مِنْ اللَّهِ يُتْلَى وَنُورٌ
تَعْلُ وَتَنْهَلُ مِنْ فَيْضِهِ

وَعُلَّتْكَ بِالْمَنْهَجِ الْأَصْوَبِ
مِنْ الْحَقِّ يُجْلَى وَهَذَا النُّبِيِّ
غَنِيَّ السِّقَايَةِ وَالْمَشْرَبِ
دُبَّ الصِّدْقِ وَالْعَمَلِ الطَّيِّبِ

إِيَادُ ! حَنَانِيكَ ! وَاللَّيْلِ سَاجٍ
فَكَمْ كَانَ جَنْبُكَ يَجْفُو الْمَضَاجِعِ
فَتُخِي مِنَ اللَّيْلِ أَجْزَاءَهُ

عَلَى مَهْجَعٍ بِالْهُدَى مُرْغَبٍ
مِنْ رَهَبٍ بِـالتَّقَى تَحْتَبِي
فَرَعْتَ إِلَى اللَّهِ قُمْ فَأَنْصَبِ
نَسَّابُ بِـالْعَبَقِ الْأَطْيَبِ
وَقُمْتَ إِلَى مَنْهَلٍ أَعْغِزْ
نِدَاءَ الْبُكُورِ ، نِدَاءَ الْغَدَاةِ
خَطَاكَ تُذَكِّرُنِي لَهْفَةً

بُنَيَّ ! سَنَذْكُرُ فَيْكَ الشَّبَابَ
نَدِيًّا عَلَى غُصْنٍ مُرْطَبٍ^(١)

(١) المُرْطَبُ : من أرطَب النخل إذا حان أوان رطبه . إشارة إلى شبابه .

وَأَغْفَى عَلَى الْعِطْرِ فِي الْمَغْرِبِ
وَإِطْلَالَ لَمَّةٍ مِنْ فَتَى أَهْيَبِ
مُنْدَى عَلَى الْجَدِّ الطَّيِّبِ
فِيَا مُزْنَ صَبِي هُنَا وَاسْكُبِي
حَيْنَ الْأُمُومَةِ شَوْقَ الْأَبِ
بِجُودِكَ فَضْلاً لَهُ أَوْ هَبِ
وَنُورَهُ ! نَضْرُهُ أَوْ ثُوبِ
بَّ ! أَيَّ عِبَادِكَ لَمْ يُذْنِبِ
عَلَى سَعَةِ الدَّارِ وَالْمَرْحَبِ
نَعِيماً عَلَى الْمَوْرِدِ الْأَعْدَبِ
تَرِفٌ عَلَيْهِ وَفِي مَوَكِبِ

وَنُوراً تَفْتَحَ عِنْدَ الصَّبَاحِ
سَنَذْكُرُ طَلْعَةَ وَجْهِهِ صُبُوحِ
فَنَسْكُبُ فَوْقَكَ عِطْرَ الْوَرُودِ
مِنَ الْمُزْنِ أَوْ مِنْ حَيْنِ الضُّلُوعِ
وَيَا قَلْبُ فَاسْكُبِ نَدَى الْعُطُورِ
وَنَدْعُوكَ اللَّهُ ! يَا رَبَّ فَاْمْنَحْ
وَوَسَّعْ لَهُ قَبْرَهُ رَوْضَةً
وَعَسَلَهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ يَارَ
وَبَدِّلْهُ أَهْلاً وَدَاراً أَعَزَّ
وَهَبْهُ بِرِضْوَانِكَ الْمُتَرَجَّى
يُزَفْ إِلَى الْخُورِ فِي جَنَّةِ

رَفِيقَكَ فِي الْجِدِّ وَالْمَلْعَبِ (١)
وَحَنَّ إِلَيْكَ فَلَا تَعْجَبِ
وَحَقُّ الْإِخْلَاءِ ! فَقُمْ رَحْبِ
فَتَى مَرَّ كَالطَّيْفِ لَمْ يَنْصَبِ (٢)
وَمَا نَعْلَمُ الْقَدْرَ الْمُخْتَبِي (٣)
وَمِنْ ضَيْقِهَا الْمُجْدِبِ
وَمِنْ رَيْهَا السَّدَاقِ الْمُخْصِبِ
وَرُوداً وَنُورَ الرَّبِّ
مِنْ عَلَى أَمَلٍ مُوَعِبِ (٤)
خُنُوءُ الْمُعْزِي خُنُوءُ الْأَبِ
تَقِي السَّجِيَّةَ وَالْمَنْقَبِ
بِأَجْرِ غِنَى الرِّضَا مُعْقِبِ

أَوَدَّعْتَ أَمْسِ الْفَتَى « بِاسِماً »
حَنَنْتَ إِلَيْهِ ! فَيَا لِلْوَفَاءِ
فِيَا « بِاسِماً » انْهَضْ لِحَقِّ الْوَفَاءِ
وَوَدَّعْتَ أَمْسِ « الرَّبِيعَ » النَّدَى
نُعْزِي بِهِ أَهْلَنَا وَالصَّحَابِ
كَأَنَّكُمْ ضَفُفْتُمْ مِنْ غُرُورِ الْحَيَاةِ
فَاتَّرْتُمْ سَعَةً مِنْ جَنَانِ
كَأَنَّ يَدَ اللَّهِ تَخْتَارُ غَرْسَ الْجَنَانِ
أَلَا لَكُمْ اللَّهَ نَدْعُو وَلِلْمُؤْ
بُنَيَّ ! يُخَفِّفُ مِنْ لَوْعَتِي
يَقُولُ الْمُعْزُونَ نِعَمَ الْفَتَى
فَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ خَيْرَ الْجَزَاءِ

تَجَاهِدُ فِي اللَّهِ لَمْ تَرْهَبِ
غِنَى الْعَزِيمَةِ وَالْمَوْهَبِ
سَيَرْحَمُكَ اللَّهُ ! فَاللَّهُ أَرْحَمُ بِالْعَبْدِ مِنْ أُمِّهِ وَالْأَبِ

بُنَيَّ ! قَضَيْتَ وَأَنْتَ الْأَبِي
حَمَلْتَ الرِّسَالَةَ وَضَاءَةً
سَيَرْحَمُكَ اللَّهُ ! فَاللَّهُ أَرْحَمُ بِالْعَبْدِ مِنْ أُمِّهِ وَالْأَبِ

(١) « باسم » محمود عثمان : صديقه الذي توفي قبله بأشهر قليلة بحادث سيارة ، رحمهما الله رحمة واسعة .

(٢) « ربيع » فتحي : توفي كذلك قبله بأشهر قليلة حين داهمته سيارة قرب منزله رحمهما الله جميعاً .

(٣) « أهلنا » : فأهلنا بمنزلة الأهل لنا . (٤) « موَعِب » : من أُوْعِبَ أي جمع .

مستويات الالتزام في روايات نجيب الكيلاني

د. عبد الله بن صالح العريني



د. نجيب الكيلاني

□ لماذا يقف الكاتب في بعض الأحيان محبذاً لتصرف شخصيات لا تتفق مع الفطرة الإسلامية!!
□ روايات الكيلاني إنجاز في مجال الأدب الإسلامي.

حينما يكون مبدأ التعامل مع الممكن، هو المبدأ الذي

يحكم رؤيتنا وتقديرنا للمواقف والأشخاص، فإننا نستطيع

القول: إن تجربة الدكتور نجيب الكيلاني الروائية، تمثل مستوى

طيباً، يجدر بنا أن نقدرها قدرها، كما نقدر هذا الكاتب الذي ظل

يمد رافد الأدب الإسلامي بكثير من عطائه الروائي المتسم بواقعية

الرؤية، وفنية الأداة.

والانطلاق جذرية بأن نضعها باعتبارنا.

فحينما كان في السجن رأى الشيوعيين يهتمون بالأدب الشيوعي اهتماماً يثير الدهشة فعلى سبيل المثال كانوا يشجعون على قراءة رواية (الأم) لمكسيم جوركي، وكانوا يعكفون على أمثال تلك الرواية مما يخدم اتجاههم؛ لأنهم يدركون أن دعوة الناس عن طريق القصة أسهل بكثير من شرح آراء (ماركس) و(لينين) وغيرهما من دعاة الشيوعية. منذ ذلك اليوم أفاق كاتبنا على حقيقة بالغة الأهمية، وهي ضرورة جعل الأدب في خدمة الدعوة الإسلامية.

وتأكد له صحة ما انتهى إليه، حين رأى اليهود والمنصرين، وأصحاب الاتجاهات السحرية، يجعلون من الأدب بعامته، والفن القصصي بخاصة، مطية ذلولاً لث سمومهم، وشراً ضلالتهم.

تلك كانت البداية وهي تمثل وضوح رؤية الدكتور نجيب للموقف، ووضوح الغاية التي قرر أن يبلغها في أدبه. لكن بل الهدف وحده لا يكفي، إذ إن الممارسة الواقعية للكاتب؛ نظر هي المؤشر الصحيح لقدرة كاتبنا على تمثل المبدأ الذي عزم على المضي نحوه. ومن الطبيعي أن تكون هنالك مسافة فاصدة تطول أو تقصر بين

يتساءلون عن صحة وصف روايات الكيلاني بالإسلامية، وفي كثير منها خروج عن الالتزام الإسلامي بل إن في بعضها صوراً للافتتان بالانحراف، عرضه بنفس الأسلوب الذي يعرضه به الآخرون.

وقفة عند مرحلة البداية

وللإجابة على تلك التساؤلات نقرر سلفاً أن الإطار العام لروايته هو إطار إسلامي مع التحفظ على بعض التجارب التي خرجت عن ذلك الإطار، وهذا يفرض بنا إلى الاقترب من هذه التجربة الفنية على امتداد مساحة عطاء روائي يجاوز الثلاثين رواية.

ولأن المنطلقات يمثل إدراكها مفتاحاً لكثير من الجوانب المثيرة للتساؤل؛ فإن نقطة البداية

وليس محبو الأدب الإسلامي هم وحدهم الذين ينظرون بعين التقدير إلى ما قدمه الكيلاني في مجال القصة الإسلامية؛ بل حتى أولئك الأدباء الذين لا يتعاطفون مع الاتجاه الإسلامي في الأدب يضطرون أحياناً إلى الاعتراف بقيمة هذا الرجل ومثله أدبه، فالأستاذ: نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل في الأدب قال أمام الصحفيين ومراسلي وكالات الأنباء: إن نجيباً الكيلاني هو رائد الأدب الإسلامي، وهو قول له دلالة ومكانته وبخاصة حين يصدر من رجل كالأستاذ نجيب محفوظ الذي قضى سنوات عمره الماضية في الإبحار باتجاه كثير من المدارس الفنية والفكرية ثم أقر بحقيقة ما لدى الكيلاني من عطاء رائع مميز.

وإذا كانت السمة الإسلامية هي التي تجعل للكيلاني هذه المثلية؛ فإن عدداً من القراء

المستوى المتميز

وفي هذا المستوى ترتفع درجة الالتزام الإسلامي وتعد روايات هذا المستوى أفضل ما قدمه الكيلاني وتتمثل في الروايات التالية: عمالقة الشمال، نور الله، ليالي تركستان، عذراء جاكوتا، الظل الأسود، دم لفطير صهيون، وهي تجمع بين قوة المضمون وسلامته، وجمال البناء الفني، وهنالك من النقاد من رأوا عند قراءتها أنهم أمام أدب عالمي، وقد طبع بعضها اثنتي عشرة طبعة خلال سنتين فقط.

واستطاع الكاتب أن يستميل القارئ العادي وأن يقدم له قصة فيها كثير من المشوقات وهي مع ذلك تحمل قضية من القضايا التي يريد الكيلاني التعريف بها، ودعوة القارئ إلى الاهتمام بها.

واستطاع الكيلاني من خلال هذه الروايات أيضاً أن يصحح مفهوم الرواية الإسلامية لدى الكثيرين الذين استقرّ في أذهانهم أن القصة الإسلامية هي التي تعيش أسيرة الماضي دون أن تتفاعل مع الواقع الذي يعيشه القارئ.

وفي هذه الروايات يستثمر الكاتب عنصر الانطباع الذي يعد في مقدمة الأساليب غير المباشرة التي تسلكها القصة للإيحاء بفكرة من الأفكار، أو توعية القارئ بأهمية قضية ما، وجعله يتفاعل معها تفاعلاً إيجابياً، ومن الطبيعي أن ينسى القراء بعض أحداث القصة، وأسماء أبطالها، لكن تأثرهم النفسي بحدث من الأحداث يبقى مستقرّاً في الأذهان. وكفى الكاتب نجاحاً أن يحدث مثل ذلك الانطباع لدى قرائه.

كما يستفيد الكيلاني من مواقف التحول في حياة الشخصيات القصصية، ويجعل منها باباً واسعاً يلج فيه إلى عالم من التأثير. ويفيد منه في إغناء فكر القارئ بتجربة حيّة مؤثرة.

فمعاناة أحد أبطال القصة في حال كفره ثم تحوله إلى الإسلام يمثل تأكيداً على عظم نعمة الهداية التي عاش المسلم في ظلها ولم يحتاج إلى أن يخوض معاناة فكرية ليصل إلى شاطئ الأمان.

ففي رواية (دم لفطير صهيون) نرى حادثة إسلام (الحاخام موسى أبي العاقبة) وكانت حادثة مقتل (الباردي توما) منعطفاً مهماً في حياته قال في نفسه:

«ليكن هذا الحادث زلزلة كبرى هزت جسدي، ومشاعري، وقلبي، كي أفيق، وأبحث عن طريق الحق» وصرخ أبو العاقبة منادياً السجان:

«أنا الحاخام موسى أبو العاقبة... أريد بعض كتب الإسلام والمسيحية... رفاقي يريدون أن يخرجوا من هذا السجن الصغير، أما أنا فأريد الخروج من السجن الكبير» (١)

وأخيراً أعلن إسلامه بعد حوار بينه وبين أحد العلماء، وكان إسلامه ضربة شديدة الواقع على نفوس اليهود كلهم.

ونرى (جاماكا) بطلة رواية (عمالقة الشمال)

أعمال حيث تلقى بنفسها في مآزق خلقية لتصبح بذلك قريبة الشبه بدور الجاسوسة العالمية (ماتاهاري).

لقد كانت غايتها مجاهدة العدو الكافر، لكنها أخطأت الوسيلة، فأوقعت نفسها في مواقف لا يجدر بالمرأة المسلمة أن تقع فيها، وكان من أخطاء الكاتب أن قدم لنا ذلك على أنه صورة من صور البطولة والتضحية، مع أن الوسيلة لها حكم الغاية في الإسلام، فإذا كانت الغاية نبيلة، فيجب أن تكون الوسيلة نبيلة أيضاً.

وقل أن تخلو رواية من تلك الروايات من خروج عن الخط الإسلامي، ولكنه بالموازنة إلى واقع الرواية العربية يظل مستوى مقبولاً، فنحن مع ذلك كله لا نعدم الروح الإسلامية التي تنتظم أجزاء العمل الروائي في أكثر روايات هذا المستوى.

ففي رواية (رأس الشيطان) نرى (عثمان باشا) يستدرج (محروس أفندي) ناظر العزبة ويعغربه بقتل الدكتور ضياء الدين:

«فقال محروس أفندي متلعثماً:
- لكن... لكني أخاف الله...
فرد الباشا، وضحكة شيطانية تنبعث من شفثيه:

- ألم أقل لك إن المسألة تحتاج لقلب رجل شجاع يا محروس أفندي؟
- القتل حرام»

وأصرّ محروس أفندي على موقفه، واستعلّى على كل النوازع والرغبات، مقدماً رضى الله على رضى الخلق، وأمام تهديد (عثمان باشا) ووعيده وقف (محروس أفندي) بثبات.

«ورفع عينين مخضبتين بالدموع، تطل منهما الرهبة والفرع، وتمتم:

- سيدي... لا أستطيع
- لماذا؟

- لأنني لم أفعلها قط...
- أيها الساذج لا تفعلها بنفسك... أليس لديك رجال؟

- الرجال ملكك... عبيدك... أما أنا فلا أستطيع... إني أخاف الله...» (١)

كما نجد في هذا النوع أيضاً مواقف واقعية. فمن خلال شخصية (فريد) في رواية (الطريق الطويل) نرى بوضوح الأثر النفسي والاجتماعي الذي تسببه المخدرات، وكيف انتهت بـ (فريد) إلى أن أصبح رجلاً مخفّفاً، يعيش على هامش الحياة، وقد غدا أسيراً للحشيش والأفيون فاضطر إلى بيع ما يخصه من أرض والده، لشراء ما يريده من مخدرات، وفي كل مرة يبيع فيها مقداراً صغيراً من الأرض، كان يضيف أعباء جسيمة على كاهل أخيه (عبد الدايم)، ولم تحسن حالته إلا عندما شفي من عبودية تلك الآفة القاتلة.

ومع كل سلبات هذا المستوى إلا أن الكاتب كان منحازاً إلى الخير، متعاطفاً معه، مؤكداً على عاقبة الشر الوخيمة وهذه السمة من أبرز سمات الأدب الإسلامي وخصائصه.

النظرية المثالية، والواقع الذي يكشف بمرارته وتحدياته صدق تلك التوجهات وإمكانية تطبيقها في ميدان الواقع العملي.

إن المتابع لتناج الكيلاني الروائي يقف على مستويات مختلفة للالتزام الإسلامي في أدبه. ولا شك أن ذلك يرجع إلى أسباب متعددة، يأتي في مقدمتها الأدوات الفنية التي تعامل معها خلال رحلته الروائية الطويلة التي بدأت قبل أربعين سنة تقريباً، دراسة تلك الأسباب ليست مما يتجه إليه هذا المقال وإنما سوف ننظر إلى تلك المستويات باعتبارها واقعا ينبغي الحكم له أو عليه.

البعد عن الالتزام الإسلامي

ويمثل هذا المستوى عددٌ من أعماله الروائية التي بعدت بها الشقة عن الصورة الإسلامية لأدب الكيلاني. فالاتجاه الإسلامي لا نجده في قصة (ليل الخطايا) التي نرى فيها إسرافاً في التعبير عن الرغبات الآثمة.

ومع أن الكاتب قد ذكر ندم بطل القصة، إلا أن ذلك لم يتعدّ الوضعة الخاطفة التي لا تؤثر في جو القصة العام كما أن نهايتها توحى بأن من الممكن أن يرتكب الإنسان ذنباً، ثم لا تثريب عليه بعد ذلك، إذ ليس بلازم أن يفتضح أمره، فتحل عليه العقوبة التي قد يكون وجلاً منها.

وقد أدرك نجيب الكيلاني ما تنطوي عليه الرواية من سلبات، فرفض إعادة طبعها مرة ثانية، وقريباً من تلك الرواية نجد روايتي (الربيع العاصف) و(في الظلام) وإن لم يبلغا في البعد عن الإسلامية ما بلغته (ليل الخطايا).

مستوى السمة الإسلامية الغالبة

وأكثر تناسج الدكتور نجيب يدور في هذا المستوى، حيث نجد السمة الغالبة هي التوجه الإسلامي، وتكاد لا تخفى هذه السمة في كل رواية من هذه الروايات ففيها حضور طيب للالتزام الإسلامي - أو على الأقل - عدم خروج كبير عليه، ومن هذا النوع: الروايات التالية: حمامة سلام، الطريق الطويل، مواكب الأحرار، طلائع الفجر، اليوم الموعود، النداء الخالد.

ومما يؤخذ على الكاتب في هذا النوع أنه يقف أحياناً موقف المجند لتصرفات بطالات قصصه على الرغم من أن تلك التصرفات لا تتفق مع السلوك الإسلامي الكريم، وكان من المتوقع أن يبين خطأ مثل تلك الأعمال، لكنه لم يفعل.

ففي رواية (اليوم الموعود) التي تدور أحداثها حول الحملة الصليبية السابعة على مصر، نرى (زمردة) بطلة الرواية تتخذ من الرقص والغناء حرفة لها، وتغيّر اسمها إلى (ياقوتة) ثم تعتاد الذهاب إلى معسكر الصليبيين لتتجسس على الأعداء، وتنقل أخبار تحركاتهم إلى المسلمين. وهذا هو الغرض الكبير الذي جعل الكاتب يقدمها لنا طوال الرواية، بأسلوب ينم عن إعجابه بما تقوم به من

أدب الطفولة

في ضوء التصور الإسلامي

د. أحمد زلط

□ في ظل الإسلام حظيت الطفولة برعاية متكاملة : تنشئة وتربية وثقافة .

□ هذا الأدب هو المستقبل لموازنته بين الجانبيين : المادي والروحي .

يعد أدب الطفولة أحد أهم الأنواع الأدبية المتجددة في أدبنا العربي والإسلامي؛ وهو أدب مرحلة عمرية متدرجة من عمر الإنسان، يخاطب شريحة اجتماعية من سن ما قبل المدرسة إلى بداية مرحلة الفتوة والشباب، لذلك عُرف ذلك اللون الأدبي المستحدث بخصائصه الذاتية ومعايير الفنية وأهدافه المتعددة.

الماضية - لم يغفل الالتفات إلى الطفل بالرعاية والعناية، ولقى الطفل في ظل الإسلام الرعاية المتكاملة في أتم صورها: تنشئة وتربية وثقافة، ولقد حظيت الطفولة مع ظهور الإسلام بأقصى ما يمكن أن تنشده البشرية لأطفالها. . ثروتها الحقيقية . . من زمن يبدأ فيه اختيار أم الطفل وحمله ورضاعته وتسميته وتعليمه وتأديبه، إلى أن يُلقن خصال الفتوة وشيم الرجولة والسلوكيات الحميدة.

إن نظرة متأنية إلى أدب الطفل العربي المسلم في العصر الحديث، ستجد من خلالها الانعكاس الإيجابي لمردود الإفادة من موروث الحضارة العربية الإسلامية تجاه الطفل وأدبه، لا جرم قد أفاد العقل العربي من الأفكار الغربية الوافدة على طريق نمو ذلك الميدان، لكنه ارتكز - على كل حال - على جذوره في البيئة الأم: «خلود توجهات العقيدة الغراء، والموروث الأدبي والشعبي، فيما يتعلق بأهم غاية أو وظيفة في أدب الطفولة وهي: الهدف الأخلاقي . . إتنا نستطيع القول في اطمئنان أن العصر الحاضر - شهد - ويشهد نمواً واعياً لا يغفل الأسس الراسخة في بناء الإنسان؛ وفقاً لركيزة روحية باقية وتعني بها: عقيدتنا التي تسع في رحابها وشمول نظرتها آفاق الحياة والأجاء، وأداب العقيدة - السلوكية والمعنوية والفنية - من العوامل الحاسمة في التربية الوجدانية والعقلية لما نسبته الأمة، في ضوء ذلك يمكن القول: إن الحضارة الإسلامية لم تغفل أهمية فنون الشر أو الشعر وفنونه

وليس من شك أن أشكال التعبير الأدبي التي تتوجه للطفل بمشابة الفروع النوعية المنبثقة من أصول شجرة الأدب الكبرى في أدب أية لغة عالمية، وأدب لغتنا العربية شأنه شأن أدب لغات الشعوب الإسلامية يزدهر بشتى أشكال التعبير الأدبي للأطفال؛ وعنهم ومنهم . ولم تكن هنالك أية عقبات تحول دون نمو أدب الطفولة أو ازدهاره سوى تناثر نتاجه فوق صفحات النتاج الموروث ومن ثم عدم المواضعة المصطلحية له كمفهوم أدبي أو نقدي باعتباره موزعاً بين أمهات الكتب أو في احضان تراث الأدب المدون للكبار. بالرغم من ذلك فإن أدب الطفولة نوع أدبي أخص من جنس أعم في مجاله الأساسين: الشر وفنونه، والشعر وفنونه.

وفي الواقع أن أدب اللغات الإنسانية مدين لتراثنا وللجذور المشرقية في مجال نشأة أدبيات الطفولة، إن استقراء الأدبيات المقارنة يكشف لنا عن خصوصية التأثيرات المتبادلة في ميدان أدب الطفل وفنونه؛ ففروع الأدب العالمي للناسئين متقولة - في أغلبها - عن أصول عربية مشرقية؛ أما الأدب المعاصر الوافد فإنه يغزو عقل الطفل ووجدانه تحت مسلمات وأهمة تقول: إن أدب الطفولة غربي المنبت، أوروبى الابتكار، أجنبي الأصل، وإن أمتنا العربية والإسلامية - في ضوء ذلك التوهم الزاعم - لا تملك من أدبيات الطفولة أي نصيب يذكر؟! .

وتراثنا العربي - طوال الحقب التاريخية

يتفتح قلبها للإسلام، فتنبك على قراءة كتب الثقافة الإسلامية، وأخيراً تنطق بالشهادتين. كتبت (لعثمان أمين) بعد إسلامها تقول:

«وجلس طوال الليل لا يقرب النوم جفني، المظلّمون يحترقون بنيران المظالم صباح مساء ويكادون يفتقدون الثقة في كل شيء . . . مجتمعنا تسوده قيم قذرة في هذه الفترة التعسة، ولكني واثقة أن الخير لا يموت، وأن العذاب الذي نعاني منه مصيره إلى الانتهاء، وأعود انظر إلى قضيتي فلا أجد لما أعانيه من سبب سوى أنني اخترت طريقي في العقيدة التي أمنت بها، واخترت الرجل الذي أحببته . . . أيمكن أن يكون ذلك جريمة أو إساءة إلى أحد؟!» (٢)

كما نستمتع بالصورة التي أبدعها الكاتب لدخول الرسول (عليه الصلاة والسلام) مكة مع أصحابه أداء العمرة في أثناء الهدنة مع قريش بعد صلح الحديبية. فنرى جلال ذلك المشهد، وتأثير بتلك الروح القدسية التي تهيم على ذلك الموكب الإيماني، كما نرى روعة التزام الصحابة بأوامر رسول الله (عليه الصلاة والسلام) وحسن أخلاقهم، ونصغي إليهم وهم يشدون بذلك النداء العذب (لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده).

إن القصة تعمل عملها لتوضح ذلك المشهد العظيم الذي هز نفوس الكفار الذين كانوا يتطلعون إلى المسلمين من فوق رؤوس الجبال المحيطة بالبيت العتيق.

وإذا كانت تلك الروايات مع كل ذلك الشاء العطر، لا تخلو من ملحوظات في سمتها الإسلامي المميز إلا أننا نجد فيها بعض ما نبحت عنه في الساحة الثقافية المعاصرة.

ومن الطريف أن الدكتور الكيلاني قد ذكر لي أنه قابل في أحد مواسم الحج أحد الأخوة النيجيريين الذي قال له: أأتم لا تعرفون قضايا بلادنا، ولا تهتمون إلا بأنفسكم، كاتب واحد هو نجيب الكيلاني اهتم بقضايا المسلمين في نيجيريا، وعبر عنها بكل دقة وأمانة.

وكانت مفاجأة له حين عرف أنه يتحدث مع نجيب الكيلاني نفسه.

إن سلسلة روايات إسلامية معاصرة تمثل وحدها إنجازاً كبيراً في عالم الأدب الإسلامي وتخطو به خطوات واسعة في مسيرته الموفقة إن شاء الله، ولئن اختلفت مستويات الالتزام الإسلامي في روايات الدكتور نجيب فإن الاتجاه الإسلامي يظل واضحاً كل الوضوح في أدبه الروائي الذي يعد إضافة بارزة إلى مكتبة الأدب الإسلامي.

(١) رأس الشيطان: ١١ - ١٢ (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٩ - ١٩٧٩ م).

(٢) دم لفظير صهيون: ٩٠ - ٩١ (دار القنائس ط: ٢، بيروت ١٣٩٠ - ١٩٧٠ م).

(٣) عمالقة الشمال: ١٣٣ (دار القنائس ط: ٢، بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م).

تنمية لدور «المؤدبين» ودور المكتب (الكتاب) ومنه نقتطف مقولة ابن سينا:

«من الضروري البدء بتهديب الطفل وتعويد ممدوح الخصال منذ الفطام» وما رواه الجاحظ: «علموا أولادكم العوم والفروسية، ورووهم ما سار من المثل وما حسن من الشعر». وفي خط مواز كانت رؤية القدماء ثاقبة وهي تؤكد أهمية أدب الطفل وتربيته المتكاملة انطلاقاً من مفهوم ديني واسع؛ ومنه أن الطفل يسذهب «للمكتب = الكتاب» ومنه قريب من السابعة ثم يقضي ما يقرب من ثلاث سنوات أو أربع في استظهار القرآن والوقوف على مبادئ أصول الدين وتعلم بعض اختيارات اللغة والشعر (١). وقد حرص الأجداد على تنمية الخصال الحميدة أو القيم العليا في الطفل وغرسها في طبعه منذ نعومة أظفاره، ومنه مقولة الغزالي الصائبة «لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات» (٢). ويستطرد الغزالي ليؤكد أهمية التوجه الأخلاقي في أدبيات الطفولة مما لا يتعارض مع المعنى الفني للأدب، دليله الاستشهاد بالحديث النبوي: «حسنوا أخلاقكم» ورصيفه «ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن» (٣). ومن المعلوم أن د. طه حسين أشار إلى ذلك الاتجاه (الديني الأدبي) فقال: «أنا أعلم حق العلم أن من المتقدمين من كان يعدل عن رواية الفاحش من الشعر سواء أكان فحشه مؤذياً للعاطفة الدينية أو للأخلاق أو الأدب» (٤). إذاً لا يصير أدب الطفل المسلم أن أولويات أهدافه: تلقين أسس العقيدة الروحية وغرس القيم والخصال الحميدة، إن أطفالنا بعد اكتسابهم تلك الأسس والقيم سيستطيعون في أطوار حياتهم أن يكسبوا المجتمع، - أو الأمة ككل - ثروة بشرية صحيحة لغت البيان الصائب ونالت قدرًا لغويًا ومعرفيًا ووجدانيًا يفيدهم في معترك الحياة.

لقد قدم الرسول ﷺ «القدوة» في تربية الطفل وتأديبه وملاطفته ففي الحديث «ريح الولد من ريح الجنة» وكثيراً ما دأب الحسين والحسن رضي الله عنهما؛ وقال فيهما «إنكما من ريحان الجنة» (٥). واقتدى بسلوكياته ﷺ سائر الصحابة والتابعين، ومن ذلك ما جاء في كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: «مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي». ومنه قال معاوية: «وجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب» (٦). ومنه أيضاً ما تقدم به الرشيد لمؤدب ولده الأمين فقال: «يا أحمر... إن أمير المؤمنين قد دفع إليكم مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصبر يدك عليه مسبوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين؛ أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروء الأشعار، وعلمه الشنن، وبصره بمواقع الكلام» (٧). والكلام لغة هو الأداء اللغوي المنطوق أو المصنوع به؛ وأهميته البالغة لم تغفل حضارتنا الإسلامية ضرورة تجويده ومعرفة أسراه فصير ملكة أو صفة راسخة في طباع الناشئين، ومنه قول عائشة رضي الله عنها «رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم» (٨).

بين الأدب الإسلامي وأدب الطفولة:

ليس من الغلو القول بأن الرابطة الحميمة بين «الأدب الإسلامي» وأدب الطفولة كغلبة بتأصيل قاعدة الانطلاق لأفاق الأدب الإسلامي وأبعاده الإنسانية، فأدب الطفل المسلم بذرة صحيحة أُلقيت في تربة الأدب الإسلامي وهي تربة خصيبة، وأم حانية مدركة، قادرة على العطاء. لا جرم؛ إذا كان الأدب الإسلامي في إطار مسيرته الفاعلة المعاصرة يواجه «كمفهوم أو تنوع في النتائج» ببعض المعوقات من أصحاب الفلسفات المادية أو فلولها - فإن الأدب الإسلامي هو أدب المستقبل لأنه يحكم ميراثه الطويل الأدب الثر المتوازن في الجانبين الروحي والمادي بينما نجد المذاهب الأخرى تبدل ولا تثبت، تتغير ولا تغير، في ضوء ذلك أستشرف راية الأدب الإسلامي مرفوعة يحلق معها أدب الطفولة، تنطلق وتنمو وتحافظ في آن واحد؛ إن أدب الطفل المسلم هو المدخل الصحيح لإرساء دعائم الأدب الإسلامي فهو القاعدة التي تزداد ارتفاعاً ونموً كلما احتفلنا بجمهور الطفولة بؤرة مركز التلقي وأهدافه المشدودة.

أدب الطفل المسلم واقعه.. طموحاته:

إن نظرة إلى بعض المعتقدات السائدة في الحضارة المادية الحاكمة في عالمنا المعاصر، سيكشف بمرغم ذلك عن عمدة الانشقاق المنطقي بين كل تجمعات العالم البشرية ألا وهي: أهمية إكساء أو غرس الجانب الأخلاقي والتهديبي في نفوس الناشئين. وهنا أنه إلى ضيق نظرة ذلك الجانب المنطقي المتفق عليه عند بعض الشعوب لأسباب تتعلق بميراثهم الديني أو التراثي الشعبي، والحضاري أيضاً، مما تنافس معه نقاط الخلاف التي تنشأ بين مجتمع وآخر. وأمتنا العربية والإسلامية ليست كذلك؛ لأنها تحمل أتم ميراث روحي ومادي متلازمين، شريطة ألا نخدع بما يصل إلينا من «ديكور» الحقوق المدنية والإنسانية المعاصرة!! فأصولها... بل وتفرعاتها أتى بها الإسلام دستوراً متكاملًا منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. وبهنا هنا الإشارة إلى موقف الإسلام من الطفل؛ ذلك الموقف السوي المتوازن: تنشئة وتعليم ورعاية بدنية وعقلية ووجدانية.

أما واقع الطفل العربي المسلم المعاصر فلم يستفد من منجزات الحضارة العربية الإسلامية عبر تاريخها الطويل، فالدعوة شئ والتطبيق أمر آخر، فما يزال مثلث الفقر والجبل والمرض يطبق على أطفالنا، فالنسبة الغالبة من أطفال العالم العربي والإسلامي يعانون من أمراض الطفولة وسوء التغذية، وأكثر من نصف هؤلاء الأطفال «أميون» (٩)؛ ومعظمهم لا يتمتعون بطفولتهم رياضة وترويحاً. متعة ومنفعة وتسليية، فيقعون أسرى للوسيط الإعلامي الخطير «التلفزة» وصار «طرزان» أو «السوبرمان» أو حتى «سلاحف النينجا» هي البطولة المدمرة والمغامرات المرسومة!! ونسى أطفالنا «القدوة» و«الأنموذج» وما أكثرهما في حضارتنا العربية والإسلامية. إن

الطفل العربي المسلم يقرأ - صحيفته أو مجلته - بإملاء المقتبس أو المترجم من الثقافة الغازية، كذلك... مناهجنا بحاجة إلى «غريبال» يضع الثوابت ويؤمّن أو يقدم المتغيرات المعاصرة في قوالب ومضامين متمعة وجادة؛ محوراً دائماً العقيدة والعلم.

الطموحات:

لعل أهم مؤشرات نتجاوز بها سلبيات واقع أدب الطفل وثقافته هي الإفادة من الرؤية الإسلامية السائدة في البناء السوي المتوازن للطفل، بالتأكيد على المرتكزات الإسلامية لما في آثارها الباقية والحاسمة في بناء شخصية الفرد. إن الأدب وفنونه أو أشكال التعبير الأدبي في أنواعه المتعددة يجب أن تخاطب عقل الطفل ووجدانه من منظور إسلامي وفني دون فصل التعارض بينهما، فالثقافة الغازية أو الوافدة تعربد أو تلعب في حديقة أطفالنا بلا رقيب أو تنسيق أو مجرد رفض ما يتعارض وعقيدتنا وأصولنا التربوية، وقيمنا وعاداتنا وتقاليدنا، وليس معنى كل ذلك أن الصورة قائمة لأقصى درجة، فهناك الجهود المتميزة على مستوى الهيئات والكتاب لتأسيس مدرسة عربية إسلامية عصرية تقدم كتاب الطفل ومجلته، برنامجه ومسرحة، ديوانه وأغانيه، لعبه وأنشيدته، تعليمه وصحته، رياضته وهوايته. وقد بلغت بعض الجهود القطرية شأواً في ذلك الميدان، إذا فليس من المستبعد أن تتكون «المدرسة العربية الإسلامية العصرية» في سائر أمتنا، المهم أن تتضافر الجهود وتصدق العزائم. مركز انطلاقنا دائماً الرؤية الإسلامية الإنسانية التي تبني ولا تهدم، تحب ولا تكبر ولا تنعصب، تمتد العنصرية وتحث على مكارم الأخلاق وتدعو للاقتداء بالسلف الصالح والنماذج الحديثة المثلى، وقبل كل ما ذكرناه التهيؤ المبكر لتحقيق الرؤية المشدودة لأدب الطفل المسلم عند القاعدة المستهدفة ونعني بها مرحلة رياض الأطفال، أما وسائنا إلى ذلك فالأدب قطرة رحمة نغمر بها فوق كافة الوسائط التربوية والثقافية والإعلامية، يومئذ تتحقق أهداف أدب الطفل المسلم: الأخلاقية والتربوية والجمالية والفنية.

المراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- السيرة لابن هشام.
- ٣- ينظر: أطروحة دكتوراه في الأدب العربي (أدب الطفولة) لكتاب المقال. مخطوطة، كلية الآداب، جامعة الرقائيق بمصر، (٨٦-١٩٩٠ م).
- ٤- (٣٠٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٨، ص ١٤٣٩.
- ٥- حديث الأربعة، د. طه حسين، ج ٢، ص ٢٢٣.
- ٦- ينظر: أدب الطفولة: أصوله - مفاهيمه، د. أحمد زلط، ط ٢ الدار العربية للنشر والتوزيع، تربية الأولاد في الإسلام، د. عبد الله ناصح علوان، المقدمة، أدب الطفولة رؤية مستقبلية، مقالة د. صابر عبد الدايم، الفصل، يونية ١٩٩٣ م.
- ٧- ثمار القلوب، للثعالبي، ص ٦٩٦.
- ٨- مقدمة ابن خلدون، ص ٥٢٢ - ٥٢٣.
- ٩- الطفولة والأمية، د. أحمد زلط، سلسلة أقرأ، دار المعارف، ١٩٩٣ م.

الركب المسافر

عيسى بن علي جابا

يا ليل أين أحبتي ورفاقي؟
يا ليل أين رحيلهم؟ أو يتركون
يا أيها الركب المسافر لحظة
وعلى فمي وقف القريض كأنما
والعين غامت في رؤاها حين
وتفجرت منها ينابيع الأسى
العمر يمضي كله في لوعة

أستار ليل فراقنا قد أسدلت
أرعى النجوم وخافتي في لهفة
أرعى النجوم كأنما أنا موكل
كم بت أذكر ما مضى فتشديني

قد كنت لا أدعى من العشاق لكني
فسيوف هذا البعد فوق جباهنا
كانت موثيق الهوى معقودة

قد كان لي أمس جميل زاهر
فغدوت أرفل في ثياب سعادة
ويجر أذيال الهزيمة ليل أحزاني
وتنفس الصبح الوضي وزائنه

ومضيت في فرح فأنساني بأن
وإذا به أمسى ويا للحزن مثل
فيل موكني هم ويعصمني أسى
أنما لا أعيش بدونهم، أرايتهم
فرجعت لما ضقت ذرعاً سائلاً

هناك يا أحباب — يوم فراق
السيف مسلولاً على الأعناق
وأظلل في صمت وفي إطراق
شجراً يعيش وليس ثمة ساق !!
يا ليل أين أحبتي ورفاقي ؟ !

□ رحلات الشيرازي صقلت خبراته وتجاربته الإبداعية

استقراره فيها أصدر عمليه الكبيرين البوستان والكلستان، فتاريخ صدور البوستان هو عام ٦٥٥ هـ أما الكلستان فصدر عام ٦٥٦ هـ.

ومن المفروض أن الشاعر لم ينظم عملاً كالبوستان وكتابا كالكلستان بهذه السرعة، بل إنه كان قد أعد مادتهما من قبل، ثم كان إصدارهما بعد استقراره في موطنه خلال هذه المدة الوجيزة.

وإلى جانب البوستان والكلستان نظم سعدي كثيراً من الغزليات والقصائد، وأبدع إبداعاً مرموقاً في هذين الفنّين، لقد عُده سعدي أستاذاً للفنّ الغزل.

فعلى يديه بلغ هذا الفن غاية نضجه. وهو الذي مهد السبيل لظهور شاعر الغزل العبقرى حافظ الشيرازي.

مشاركة لغوية:

بدراسة لأعمال سعدي ندرك أنه كان واسع المعرفة بالثقافة الإسلامية، وأنه كان يجيد العربية، إلى جانب براعته في لغته الفارسية^(١).

ويصور سعدي امتزاج الآداب الإسلامية تصويراً قوياً، ففي كليات سعدي وهي آثاره المجموعة قصائد عربية، وقصائد فارسية، وملحومات. وهذه الملحومات تقوم على المشاركة بين اللغتين العربية والفارسية.

وسعدي صاحب مشاركة وانفعال بما يجري في العالم الإسلامي.

وقصيدته التي رثى بها بغداد بعد تخريبها على يد المغول وقتل خليفة المسلمين المستعصم في سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م قصيدة مشهورة. وتعد شاهداً لنا فيما نقول، ولم يكتف بالشعر الفارسي في رثاء بغداد والخلافة الإسلامية بل نظم أيضاً شعراً عربياً في هذا المعنى^(٢).

ويعد الشاعر سعدي الشيرازي من أشهر شعراء الفرس الذين اقتبسوا من معاني القرآن الكريم. ومن أمثلة هذه الاقتباسات في أدب سعدي قوله: -

كانت ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه أول ما اتجهت إليه أنظار أدباء الفرس ولا غرابة في ذلك، فالمتمائل في مسيرة الأدب الفارسي يدرك أنه اعتمد كلية على الأدب العربي وكان الشعراء يفخرون بمعرفتهم باللغة العربية بنفس الدرجة التي يعرفون بها لغتهم الفارسية وأن مثل هؤلاء الشعراء كان يُطلق عليهم اسم (أصحاب اللسانين) تمييزاً لهم عن الشعراء الشعوبيين الذين اقتصر نظمهم على اللغة الفارسية فقط وكانوا قلة.

يذهب أكثرهم إلى أن الإشارة إلى الأماكن في أعمال سعدي - هي في أغلب الأحوال - من قبيل الخيال، وأننا يصعب علينا أن نرسم صورة لرحلاته من إشاراته إلى المدن والأقاليم. ومهما يكن من أمر فالظاهر أن رحلات سعدي قد حملته إلى مناطق مختلفة من العالم، وأنه قد اكتسب في رحلاته كثيراً من التجارب والخبرة بالحياة. وليست رحلات علماء المسلمين بالأمر العجيب، فقد سبقه إلى الترحال عشرات العلماء، وكذلك طاف بالعالم من بعده كثير من الرحالين.

ولقد عاد سعدي إلى موطنه شيراز نحو عام ٦٥٣ أو ٦٥٤ هـ في أواخر عصر أتابكة أبي بكر سعد بن زنگي. وهو من أتابكة فارس الذين نجحوا في تجنب إقليهم ويلات، الغزو المغولي، التي كانت قد أصابت العالم الإسلامي، ووصلت في مدها إلى كثير من مناطق إيران، ثم وصلت إلى عاصمة الخلافة بغداد عام ٦٥٦ هـ. وقد انتهى أمر أتابكة فارس عام ٦٦٢ هـ بعد أن عاش المتأخرون منهم اتباعاً للمغول.

أتيح لسعدي أن يستقر في مدينته شيراز - بعد عودته إليها من أسفاره - قرابة ثلاثين عاماً، قضاه في رعاية الأتابكة، ثم استطاع بعد زوال ملكهم أن يتقرب من المغول، وله مدائح تدل على نجاحه في اكتساب ثقتهم أو على أقل تقدير، في تجنب أذاهم.

ولقد كانت فترة إقامة سعدي في شيراز فترة خصوبة أدبية في حياته المديدة، فبعد قليل من

وعلى رأس الشعراء من أصحاب اللسانين الشاعر سعدي الشيرازي الذي ولد في شيراز بإقليم فارس في أواخر القرن السادس الهجري أو أوائل السابع. ويرى الباحث الإيراني المعاصر عباس إقبال، أن تاريخ مولده يقع بين عامي ٦١٠، ٦١٥ هـ (١٢١٣، ١٢١٩ م).

والظاهر أن هذا الشاعر قد فقد أباه في حداثة سنه، فهو يشير إلى ذلك في بوستانه، ويوصي بالإشفاق على اليتيم. ولقد تلقى سعدي تعليمه في شيراز حتى وفاة أبيه، وكان إذ ذاك فتى يناهز الثانية عشرة من عمره. ويروى أنه أكمل تعليمه في المدرسة النظامية ببغداد.

يقال إن سعدي - بعد أن أتم دراسته في المدرسة النظامية - قضى ثلاثين عاماً في الأسفار، وإنه زار آسيا الصغرى وجاهد ضد الروم، وحملته أسفاره إلى مسافات بعيدة شرقاً وغرباً، ولقد ورد في كتبه ذكر لمناطق مثل الشام وفلسطين والجزيرة العربية ومصر والمغرب والحبشة وآسيا الوسطى والهند.

أسفار متعددة:

ولقد دفع هذا بعض الباحثين لمحاولة استقصاء حياة سعدي من إشاراته إلى أسفاره في كتبه، ومن فعل ذلك هنري ماسيه في رسالته المعروفة عن سعدي، لكن محاولته هذه لم تلق نجاحاً كبيراً في الكشف عن حياة سعدي، كما أنها لم تلق قبولا لدى غيره من الباحثين، الذين

«يا شام»

شعر / مؤمنة أديب صالح

لا ينقضي يومٌ بغيرِ تاملٍ
أو تختفي شمسٌ بغيرِ تعليلٍ
لَكَانَ سلطانُ التواجدِ سيدي
أو أن قاموسَ التذكيرِ منهلي
يا شامُ جرحُك في الفؤادِ قصيدتي
وشذا ربيعك شاعلي وموئلي
ترك الفؤادُ حنانَ شامٍ أتُرعَت
حتى الجمُـامُ من الجمالِ الأولِ
شامُ لها تهفو القلوبُ وتُرجي
عُوداً لسحرِ نسيمها المتمهلِ
تأوي إليك قلوبُنا لكنمنا
تشكوا العيون من ابتعاد المنهلِ
يا شام دمعتُ مالح في وجنتي
وجراح عشقك شعلت في مرجلي
أنى لمثلي أن يروم تأسيماً
بعد الشامِ فلا نعمتُ بموئلِ
بعد الشامِ أرى الفؤادَ مشرداً
وأرى الجروحَ تكاثرت في مقتلي
طال النوى والعمر يسرع بالفتى
والتيه يقطع في الفؤادِ كمنجلِ
والعمر بعدك يا شامُ بفرحته
أو ضحكة أو نظرة لموئلِ
ستممر أيامي كزرعٍ يابس
لا يترجى غيثاً بيومٍ مقبلِ
وتهيج أحزاني وتزهو حسرتي
ويثور إعصاري فيطفئ مشعلي
لا النأي يرحم أو يعوّد مشرداً
أو ينقضي زمن السرحلِ بمقتلي
ستطوول ساعاتي بأرض تغربي
ويميل دمعي تحت جفنٍ مسبلِ
قالوا حرام أن تموت مشرداً
عداً للشامِ وللزمانِ الأولِ
فأقول ماتت في الشامِ يمامتي
والقلب ينكر للرجوعِ توسلي
ما هذه شامُ الطفولة والهوى
شامُ الأصالة طيرها يشتاق لي

بنكرش هرجه بيني درخروشت
ولي داند درين معنی كه كوششت
نه بلبل بركلش تسبیح خوانیست
كه هرخاري به تسبیحش زبانست
ومعناه:

كل ما تراه في هذا الكون مشغول بذكره
يدرك هذا المعنى كل من كان له أذن
وليس البلبل هو الذي يسبح وحده فوق الورود
ولكن كل شوكة لها هي الأخرى لسان تسبح به
أخذ هذا المعنى من قوله تعالى: -

﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض﴾.

أو قوله تعالى: -

﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض﴾.

ومن ذلك أيضاً قول سعدي: -

زن بد درسرای مردنکو
هم درین عین المست دوزخ او
زینهاراز قرین بد زینهار
وقتا ربنا عذاب النار
ومعناه:

إن المرأة السيئة في بيت الرجل الصالح،
تذيقه عذاب جهنم في هذا العالم فاحذر من قرين
السوء احذر، وقتنا عذاب النار.
وقوله:

أي قناعت توانگرم كردان
كنه وراى توهیج نعمت نیست
کنج صبر اختیار لقمانست
هرکرا صبر نیست حکمت نیست
ومعناها:

إيتها القناعة أغني، فليس بعدك نعمة.
وقد اختار لقمان كنز الصبر، وكل من لا صبر
له، لا حكمة له.

مأخوذ من قوله تعالى: ﴿واصبر على ما

أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾.
ويقول سعدي في خطيب كريبه الصوت إن
صوته كنعيب غراب البين وفي حقه آية ﴿إن أنكر

الأصوات لصوت الحمير﴾.

ويقول سعدي:
جو دوخ كه سيرش كنند از وقيد
دكر بانك دار دكه هل من مزيد
ومعناه:

حين تمتلئ جهنم بالوقود
تصبح مرة أخرى هل من مزيد
أخذه من قوله تعالى: ﴿يوم نقول لجهنم هل

امتلائي وتقول هل من مزيد﴾ (٣).

(١) د. محمد عبد السلام كفاقي - في الأدب المقارن -
دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي - ص ٥٣١ -
دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٢ م.

(٢) د. طه نندا - الأدب المقارن - ص ١٠٩ - دار
المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٨٧ م.

(٣) د. طه نندا - الأدب المقارن - ص ١٣٠ - دار
المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٨٧ م.